دفافني يسرى

رواية

بين أحضان المالح

إهداء :

إلى كل من عانوا من قسوة الطريق،
إلى أرواحٍ فقدت في البحر والبرّ،
إلى كلِّ طفلٍ بريءٍ لم يُعطَ فرصة للحياة،
وإلى كل أمٍ وأبٍ صمدوا رغم الألم.

هذا الكتاب لكم،
لأصواتكم التي لم تنقطع،
ولحكاياتكم التي تُستحق أن تُروى.

دخان القهوة وأحلام البحر

كان الليل يلف الحيّ كغطاء مهترئ، تتسلل من بين ثقوبه أنوار باهتة لعمود كهربائي مائل، يقف منذ سنين كشيخ يتّكئ على عصاه.

في الزاوية، تحت اليافطة المائلة التي كتب عليها بخط باهت "قهوة الفجر"، جلسوا... أربعة وجوه أنهكها الانتظار.

بلال كان أوّلهم حديثًا وأقلّهم ضجيجًا، عيونه الغارقة في السَّواد لم تكن تتحدث كثيرًا، لكنها كانت تصرخ في الداخل.

كريم، بجسده النَّحيف وروحه الثقيلة، كان يُحرّك ملعقة السكر داخل كأس الشاي كمن يدوِّر فكرة الرحيل في رأسه.

أنور، ضحكته العالية كانت أقرب إلى بكاءٍ مقنّع، يطلق نكاتًا لا تضحك أحدًا، فقط ليهرب من صوته الداخلي.

أما سليم، فكان يدوّن شيئًا على ورقة صغيرة، يُقال إنه يكتب الشعر، لكنه لم يُرَ يومًا وهو ينهي بيتًا كاملاً.

قال كريم بعد صمت ثقيل:

تخيَّل معي لو نبحر الليلة .... ننسوا كل شيء."

رد أنور بسخرية:

"ونرجع في صندوق؟ أو نصبح خبر في أخبار التاسعة ".

بلال رفع عينيه ببطء:

"أحسن ما نموتوا و نحن على قيد الحياة..."

سليم وضع قلمه ، وقال بهدوء:
"الوطن مش تراب، الوطن هو الكرامة
وإذا الوطن نساك، البحر ربما يذكِّرك بأنك ما زلت على قيد الحياة."

ضحك الجميع، ضحكة لم تكن ضحكةً، بل كانت نوعًا من الحزن الجماعي، كأنهم مُتَّفقون على شيء لا يُقال.

مرَّت سيارة شرطة ببطءٍ أمام القهوة، صمتوا جميعًا. ثم مرّت ومضت، مثل الأمل.

قال كريم وهو ينظر إلى البحر البعيد:

"غداً نُكمل الكلام ... البحر، ليس لديه أسوار ولا عساكر."

قال بلال بصوت خافت:

"ولا قلب ."

صمت الجميع.

فـي تلـك اللَّيلـة، لـم يُـودّع أحـدهم الآخـر، لكـنَّهم جميعًـا عرفـوا أن شـيئًا مـا قـد بدأ في التَّشكُّل...

قرارٌ لن يُتّخذ بصوت.

وجوه لم يكتبها القدر

بـلال كـان يحـدق فـي الملعقـة أكثـر ممـا ينظـر للنـاس. لا أحـد يجـرؤ علـى سؤاله إن كان بخير.

فقط يعرفون أنـه فـي يـوم مـن الأيـام، كـان طالبًـا يرفـع يـده بكـل ثقـة فـي مـدرج الجامعة، يناقش أساتذته بنبرة هادئة وذكية.

ثـمّ، فجـأةً، أصـبح يجلـس فـي القهـوة مـن الصـباح حتـى آخـر الليـل، يحمـل شهادة لا تسمن ولا تغني عن جوع،

ويكتـب فـي دفتـر صـغير كلمـات لا أحـد قرأهـا مـن قبـل، لكنَّـه لا يسـمِّيها "يوميات"، بل "قائمة الانتظار".

أمَّا كريم، فكلَّما ذكر أحدهم البحر، رمش مرَّتين.

أحيانًا يبتسم دون سبب، ثم يعقد حاجبيه فجأة، كأنَّه تذكَّر شيئًا ممنوعًا.

يُقـال أنَّ والـده غـرق فـي البحـر منـذ سـنوات، فـي نفـس الأسـبوع الـذي اشـترى فيه كريم أول حذاء رياضي بثمن باهظ.

منذ ذلك اليوم، صار يكره الشاطئ... ويشتاق إليه.

أنور... هو وحده الذي لا يسكت.

كلماته مثل زخات مطر على سقف زنك، كثيرة وسريعة.

لكـن مـن يعرفـه حقًـا، يعلـم أنَّـه لا يـتكلم كثيـرًا لأنـه سـعيد، بـل لأنـه لـو سكت... سينهار.

خـرج مـن "المركـز" قبـل عـام، تـرك الإبـرة خلفـه، لكـن آثارهـا مـا زالـت فـي صوته المرتجف حين يضحك، وفي يده التي ترتجف حين يسكب القهوة.

وسليم...

ذاك الـذي يحمـل دفتـرًا صـغيرًا لا يفارقـه، يقولـون إنَّـه يكتـب الشـعر، لكـن الحقيقة أنَّه يكتب رسائل لأمه.

أمــه لا تقـرأ، لكنَّهـا تحفـظ نبـرة صـوته حـين يقـرأ لهـا كـل ليلـة، مقـاطع لا تفهمها... لكنها تشعر بها.

كـان حلمـه أن يطبـع ديوانًـا يومًـا، لكـن الـورق غـالٍ، والحبـر لـم يعـد يسـيل إلا حين يتخيَّل البحر.

في مساء اليوم التالي، اجتمعوا من جديد في نفس الزاوية.

قال سليم وهو ينظر للبحر من بعيد:

"البحـر لا يسـألك مـن أنـت ؟ ولا يطلـب بطاقـة التعريـف ... البحـر يسـألك إن كنت خائف أم لا ...؟"

رد كريم:

"أنـا؟ أنـا مـا نهـربش... أنـا شـجاع هـه الهـروب للجبنـاء، أمَّـا اللّـي تعبـوا، يروحوا واقفين."

ثم عمّ صمت طويل.

كان كل واحد منهم يفكر في شيء مختلف... لكن الشعور واحد:

لم يبقَ شيء هنا.

صمت ما قبل الرحيل

السماء كانت رمادية، لا نجوم، لا قمر، فقط ضوء خافت كأنَّ البحر يحبس أنفاسه.

كان كريم يجلس على الحافَّة الخشنة للميناء القديم، ينظر إلى القارب المهترئ الذي وُعد بأنه "طريق النَّجاة".

جاءه سليم من خلفه، خطواته مترددة، وصوته كمن يختنق بكلمة:

– "تخاف؟"

لم يردّ كريم. ظلّ ينظر إلى المالح، كأن فيه إجابة ضاعت منذ زمن.

ثم همس دون أن يلتفت:

– "خايف نوصلو ."

سليم جلس بجانبه، سحب لفافة تبغ وأشعلها بيدٍ مرتجفة:

– "أنا خائف أنَّنا لن نكونوا من الواصلين ، ولا من الحيِّن. رانا حاصلين بين نارين ..."

مرَّت لحظة صمت.

ثم قال كريم:

– "قال لي البحّار: البحر ميرحمش... بصح أصدق من الوطن."

سليم ضحك، ضحكة مُرّة

أغمض كريم عينيه، كأنّ مشهدًا ما يعبر في ذاكرته.

– "رأيت أمي هذا الصباح. كانت تنظر إليّ كأنها تعرف، لكنَّها لم تسأل. فقط وضعت يديها على كتفي وقالت: 'البحر لا يأخذ إلا من يتمنّاه.'"

سليم رمى السّيجارة في الماء، وتنهّد.

"إذا مت ، اخبروه أنّني لم أكرهه ... بل أبحث عن الحياة ..."

ارتفع صوت الموج فجأة، كما لو أن البحر أعلن بدء الحكاية.

جلسا هناك، على ضوء باهت ينبعث من المصابيح القديمة التي كانت تتهاوى فوق الميناء، يعكسان وجوهًا متعبة محفورة بخطوط الألم والخوف.

كـريم يعبـث بخـيط مـن الحبـال، سـليم يشـعل سـيجارته بـبطء، كـل منهمـا يسـتمع لصوت البحر وكأنه يرسل لهما رسالة سرية.

" –تسمع بقولة البحر دنيا ؟"

قـال كـريم بنبـرة منخفضـة، عينيـه تتـابع المـوج كأنـه يبحـث فـي عمقـه عـن شيء مفقود.

" –كيفاش ؟"

رد سليم، يمتص الدخان ببطء.

" –البحر لا يرحم لكن يعطيك فرصة ..."

سـكتا، ثـم قـال سـليم فـي نفسـه أن هنـاك أشـياء لا نسـتطيع تحملهـا، حتـى لـو كانـت البدايـة الجديـدة تسـتحق العنـاء. الخـوف، الوحـدة، ألـم الفـراق... أشـياء تثقل كاهلنا قبل أن نبدأ الرحلة...

نظر كريم إلى صديقه بعمق:

" –راك متـذكر أول مـرة تحـدثنا عـن الحرقـة؟ كيفـاش حلمنـا .... نروحـو و منشوفوش مورانا ..."

" –نعم، لكنني خائف قليلا..."

صمت ثقيل ملأ المكان.

ثم قال كريم بصوت يكاد ينكسر:"

هـي ليسـت فقـط رحلـة للهـروب، يـا سـليم. هـي صـرخة حيـاة، نبحـث فيهـا عـن فرصـة نستنشـق فيهـا هـواءً جديـدًا، نبـدأ فيـه مـن جديـد... كمـا يقـول عمـي دحمان مول القهوة : حشيشة طالبة معيشة. "

" زعمـا البحـر يعاونـا و يكاتفنـا بـاش نلحقـوا و نشـمو الهـواء (ضـحك سـليم و كريم بصوت مرتفع ...)

" ربما نعم ، ربما لا ، بصح واش يقولو" الخواف رزقه قليل ..."

ثـم حـدق الاثنـان فـي البحـر، حيـث امتـزج الظـلام بلـون المـالح، وارتفعـت الأمواج كأنها تهمس لهما: "الرحلة تبدأ الآن... هل أنتما مستعدان؟"

فـي تلـك اللحظـة، بـدأ البحـر يتحـرك بقـوة أكثـر، وصـوت المـوج صـار أعلـى. شـعرا كـأنّ الأرض تحـت قـدميهما تهتـز، وكأنهـا تحـذرهما مـن مغبـة المغامرة.

لكن شيئًا في داخلهما دفعهما للوقوف.

كريم أخذ نفسًا عميقًا، وأمسك يد سليم بقوة.

" –لن نتراجع الآن. ليس بعد كل هذا الألم."

" –بين أحضان المالح، سنجد طريقنا، مهما كان الثمن."

ثـم نهضـا باتجـاه القـارب الصـغير المهتـرئ، وكـل خطـوة كانـت تخطـو بهـا قلـوبهم نحـو المجهـول، لكنهـا كانـت مليئـة بالأمـل والرغبـة فـي حيـاة جديـدة، بعيدًا عن كل ما يعرفان

اقتربا من القارب، حيث كانت الرياح تهب بشراسة، كأنها تحاول ثني عزيمتهما، أو تذكيرهما بخطورة الخطوة التي على وشك أن يخطياها.

وقف كريم للحظة، نظر إلى القارب، ثم إلى البحر المتلاطم.

في عينيه تلاقت صور أمه التي لم يفارقها حلم الهجرة، وصورة أبيه الذي غادر المدينة قبل سنوات، تاركًا خلفه صمتًا مريرًا.

همس في قلبه :

" –كل شيء هنا يذكرني بما فقدته... لكنني لا أستطيع البقاء، ليس بعد الآن."

سليم وضع يده على كتف كريم بحنان، وقال:

(هم ثقيل رانا رافدينو ، يليق نقيسو كل شيء فالبحر و نبداو حياة جديدة...)

" –أعرف، يا صديقي ، نحن نحمل أحلامنا الثقيلة على أكتافنا، كأنها صخور بحرية لا تنتهي. لكن ربما... ربما البحر يخفف أعباءنا إذا سمح لنا بالعبور."

لم يستطع كريم منع نفسه من النظر إلى السماء. كانت مظلمة بلا نجوم، كما لو أن الكون كله ينتظر منه قرارًا مصيريًا.

كريم يخنقه صوتا :

" –أخشى ألا أكون فقط أنا من يغادر. أخشى أن يتركني خوفي هنا، بين الرمال المالحية، أسير في دوامة لا نهاية لها."

ركبا القارب معًا، وحاولوا أن ينسوا صرير الخشب المهترئ تحت أقدامهم.

رياح البحر لعبت بأطراف ملابسهما، وكأنها تهمس لهما بأن الحياة الجديدة ليست إلا بداية رحلة شاقة أخرى.

شعر كريم بقلبه ينبض بقوة، كما لو أنه كان يتحدى الموج التي قد تبتلعه في أي لحظة.

همس:

" إن كانت هذه هي النهاية ، فلتكن نهاية حكاية الألم ... و بداية حكاية أخرى ، مهما كانت مجهولة .

لم تمضِ دقائق على تحرك كريم وسليم داخل القارب حتى لمحا ظلالاً تقترب في العتمة...خطوات متسارعة، متقطعة، كأنها تخشى أن يسبقها الفجر قبل أن تهرب.

– "كريم! سليم!"

كان الصوت يأتي من بلال، يركض وهو يلوّح بذراعه، يتبعه أنور الذي يحمل شيئًا ملفوفًا في بطانية... لا، لم يكن شيئًا... كانت امرأة، شابة، تحمل طفلًا صغيرًا نائمًا فوق صدرها، ووجهها مغطى بشال رمادي بالٍ.

وصلوا إلى حافة القارب، وأنفاسهم لاهثة، والفتاة بالكاد تقف.

- " تأخرنا ؟" قال أنور، وعيناه تلتفتان بقلق إلى الأفق كأن الخوف يركض خلفه.
- "ما بعدناش ؟ ، " (لم نبتعد بعد) "... أجاب كريم، وهو يمدّ يده ليساعد الفتاة على الصعود.

نظرت إليه بعينين متعبتين، فيهما ألف سؤال لم يُطرح، وألف وجع لم يُقل.

بلال صعد بعدهم، ثم جلس في الزاوية، يسند ظهره إلى الحافَّة الخشبية.

قال بصوت مبحوح:

- "وجدناها قرب السكة، كانت تبكي وهي تحتضن صغيرها. زوجها قُتل منذ شهر... لم تجد مكانًا تلجأ إليه... قالت: إما أُهاجر معكم... أو أموت هنا."

أنور كان يتفحص الموج، كأنه يحسب نبض البحر. ثم قال:

(واحد مراهش هارب غي من دزاير واحد راه هارب من روحه و باغي يبدل روحه و عقليته ، قتلنا الهم الله غالب ربي داري بينا ...)

- "أتعلمون؟ نحن لا نهرب فقط من الوطن، بل من ذواتنا التي أنهكها الجوع، والذل، والانتظار."

الفتاة ... ، واسمها مريم ، تحدثت لأول مرة، بصوت خافت كنسيم خائف:

" ولدي راهو يومين بالجوع ، قلبي يتقطع عليه ... بلاك أروبا توكله "

– "طفلي لم يعرف طعم الحليب منذ يومين... هل تعتقدون أن الضفة الأخرى ستطعمه؟"

لم يجبها أحد.

صمت طويل.

المركب يترنّح بهدوء، كأن البحر يسمعهم، ويتأمل مآسيهم.

كل واحد منهم كان يحمل قصة، وحقيبة لا تظهر، لكنها ممتلئة بخيبات وعجز وأحلام مبتورة.

سليم نظر إلى الطفل، ثم إلى مريم، وقال:

" البحر لا يفرّق بين كبير وصغير. لكن... ربما، لطفلٍ بريء، سيُظهر بعض الرحمة."

بلال أخرج من جيبه صورة صغيرة مطوية، نظر إليها لثوانٍ، ثم قبّلها وهمس:

– "أمي... سامحيني."

أنور قال:

– " أظننا لم نعد نملك حق الرجوع... لقد ودّعنا أنفسنا منذ أن قرَّرنا الرحيل."

كريم أغلق عينيه، وتنهد:

– "نحن لسنا فقط من نغادر، بل نحن من يُدفنون أحياء في هذا الوطن.
– البحر، رغم قسوته، أوضح من صمت الأرض التي خذلتنا."

بدأ المركب يتقدّم أكثر، يبتعد عن اليابسة شيئًا فشيئًا، وموج البحر يعانق خشبه بشدة، كما لو أنه يختبر قوة قلوبهم.

الطفل فتح عينيه للحظة، وأصدر صوتًا خافتًا.

مريم احتضنته بقوة، وهمست له بصوت لم يسمعه سواها:

"اصبر، صغيري... هناك في البعيد وطن آخر... ربما يشبه الحلم، وربما لا... لكننا سنحاول."

ومع كل موجة، كانت السماء تقترب من البحر، وكأنّهما قرَّرا أخيرًا أن يُنصتا لصوت من لا يُسمَعون.

أومأ سليم برأسه، وابتسم له ابتسامة تختلط فيها الرهبة والأمل.

في تلك اللحظة، انطلق القارب ببطء نحو الأمواج الكبيرة، تاركين خلفهم الميناء القديم، والمدينة التي حملت أوجاعهم وأحلامهم معًا.

ارتجاف البداية

المركب بدأ يبتعد... المدينة الصغيرة تبهت شيئًا فشيئًا. لم يتكلَّم أحد. حتى البحر، بدا وكأنَّه يتنفَّس بصمت ثقيل.

في الزاوية اليمنى، جلس كريم يضمُّ ركبتيه إلى صدره، كأنه يحاول أن يحمي قلبه من السُّقوط.

سليم إلى جواره، يراقب خط الأفق، لا يرى سوى سوادٍ لا نهاية له.

أنور في المقدمة، يراقب الاتجاه.

بلال استلقى على ظهره، عينيه مفتوحتان في العدم.

ومريم ، الفتاة الوحيدة بينهم، تحضن طفلها بكلتي ذراعيها، كأن العالم كله يكمن في هذا الجسد الصغير.

صوت الأمواج وذكريات الأرض

– "كنّا نضحكو على المهاجرين... حتى أصبحنا منهم ."

قالها بلال بصوت مبحوح، فلم يرد عليه أحد... لكنّ العبارة سكنت قلوبهم جميعًا.

كريم يتذكر ليلة هروبه من بيتهم... نظرة أُمِّه، دمعة علقت في طرف عينه، لم يسمح لها بالسقوط.

أنور يتذكر آخر راتب لم يقبضه ، وصاحب الورشة يضحك عليه.

سليم يتذكر جدّه الذي كان يقول: "الوطن ترابك، مهما ضاق بك الحال."
لكنه الآن لا يرى ترابًا، فقط مالح يحيط به من كل الجهات.

مريم وطفلها... الألم الصامت

في اللحظات الأولى، لم تكن مريم تتكلم. لكن في الليل، حين بردت الريح واشتد تمايل المركب، بدأت ترتجف.

اقترب منها أنور وأعطاها سترته.

قالت:

- "كان اسمه آدم... مات وهو يبحث عن عمل... كل ما أملكه الآن هو هذا الصغير، واسمه نور."

- "نور..." رد كريم، "اسم يناقض كل ما نعيشه."

- "ربما هو الشيء الوحيد الذي لم يلوثه اليأس بعد."

الحوارات السرية

فـي عمـق الليـل، بـدأ كـل مـنهم يـتكلم... بصـوت خافـت، كأنـه يفـرغ ذاكرتـه قبل الغرق.

بلال:

"أنـا سـرقت حتـى أشـتري تـذكرة لهـذه الحرقـة... قـال لـي واحـد ...البحـر أرحم من السجن."

سليم:

– " خويـا مـات فـي البحـر... لـم يخبرونـا إلا بعـد أسـبوع، حـين عـاد جثمانه على الشاطئ."

أنور:

– "أنا لا أريد شيئًا من هذا العالم... فقط أن أنام بلا خوف."

كريم:

– "كنـــت أحـــب فتـــاة، وقلـــت لهـــا: انتظرينـــي... ســـأعود رجـــلًا يستحقك. لكنها تزوجت ابن العم."

الموجة الأولى

عند منتصف الليل، بدأت الأمواج ترتفع.

الطفل بكى.

مريم صرخت:

– "أرجوكم، لا تتركوه يسقط!"

سليم أمسك الطفل، ضمه إلى صدره.

– "سيعيش. لن يموت كما متنا نحن."

المركب بدأ يصرخ. خشبه يتأوه تحت الضغط.

أنور يحاول السيطرة على الاتجاه، يصرخ:

– "لا نزال بعيدين! تماسّكوا!"

هلوسات البحر

الخوف بدأ يتسلل...

كريم رأى وجه والده في الماء.

بلال ظن أن يدًا خرجت من البحر تحاول جذبه.

سليم تمتم:

– "هل نحن أموات نطفو فوق قبورنا؟"

مريم أغلقت عينيها وبكت بصمت.

الصبح الذي لا يأتي

مرت ساعات طويلة...

لم يأتِ الصباح.

أنور قال:

– "كأن الليل هو عقابنا، لا يريد الرحيل."

الطفل نام مجددًا. كان هادئًا... بشكل مخيف.

مريم همست:

– "هل لا يزال يتنفس؟"

كريم اقترب، وضع أذنه على صدر الطفل، ثم ابتسم:

– "قلبه لا يزال يقاوم... مثلنا تمامًا."

جفاف اللسان وملوحة الروح

مرّت ساعات، أو ربما أيام. الوقت لم يعد واضحًا.

كانوا قد قسموا ما تبقى من الماء إلى جرعات صغيرة.

أنور، وقد تكسرت شفتاه من العطش، قال:

– "تخيلوا... نموت غرقًا ونحن نعاني العطش!"

ضحك بلال فجأة، ضحكة متشنجة، وقال:

– "هذا هو الوطن الحقيقي... ماءه لا يُشرب، وأرضه لا تُزرع، وأحلامه تُكسر."

مريم لم تشرب منذ ليلة أمس. كانت تعطي الماء لطفلها فقط، تقطره على شفتيه بلطف، وكأنها ترويه بدم قلبها.

كريم حاول أن يهدّئهم:

– "لسـنا وحـدنا فـي هـذا البحـر. هنـاك آخـرون عبـروا... نجـوا. سنكون مثلهم."

لكن صوته لم يكن واثقًا. كان أشبه بنداء داخل بئرٍ لا قاع له.

وهم اليابسة

مع بزوغ خيوط الشمس الباهتة، صاح أنور:

– "هناك! يابسة!"

نهضوا جميعًا كأنهم انتُشلوا من موت مؤجل.

لكن ما رأوه لم يكن سوى سراب...

جزيرة من دخان وضوء وانعكاسات.

بلال سقط جالسًا، وجهه ممتقع:

– "الوطن خدعنا... والبحر الآن يخدعنا أيضًا."

مريم همست وهي تهدهد ابنها:

– "نور... لا تصدق كل ما تراه، ولا حتى اليابسة."

الحوارات العميقة: معنى الوطن

عندما خيّم الليل مجددًا، بدأوا يتكلمون عن الشيء الذي فرّوا منه:

سليم:

– "هل الوطن هو الأرض؟ أم الناس؟ أم الماضي؟"

كريم:

– "الوطن؟ بالنسبة لي هو وجبة ساخنة عند المساء، وابتسامة أمي."

أنور:

– "الوطن كذبة كبيرة نحملها لأننا لا نملك غيرها."

بلال:

– "أنا أكره الوطن. أو ربما أكره نفسي لأني ما زلت أفتقده."

مريم، بصوتٍ مرتجف:

– "الـوطن... هـو المكــان الــذي لا ينــام فيــه الطفــل جائعًــا. ولهــذا خرجتُ منه."

ساد صمت كثيف بعد كلماتها. حتى الموج هدأ، وكأنه فهم أخيرًا عمق ما قيل.

القتال الداخلي والخلاف

في اليوم الرابع، بدأت التوترات.

أنور أراد المزيد من الماء لنفسه.

بلال صاح:

– "لن نموت من العطش وحدنا، بل من أنانيتنا!"

كاد الشجار أن يتطور ليدين، لولا أن صرخة الطفل قطعت كل شيء.

نور كان يبكي بحرقة، لأول مرة منذ بداية الرحلة.

بكـاؤه أعـادهم إلـى إنسـانيتهم، كـأن الطفـل قـال لهـم مـا لـم يسـتطيعوا قولـه لأنفسهم.

كريم صرخ في الجميع:

– **"إما أن ننجو معًا، أو نموت كلٌ وحده!"**

سليم هدّأ بلال، ومريم ضمّت طفلها باكية.

المركب كان ما يزال يطفو... بصعوبة.

طائر الغيب

مع انبلاج فجر آخر، مرّ فوقهم طائر وحيد، يطير في دوائر.

بلال قال:

– **"طائر؟ يعني أن اليابسة قريبة!"**

لكن الطائر لم يكن رسولًا للنجاة...

اختفى مثلما جاء.

أنور قال بنبرة منكسرة:

– "حتى الطيور تتوه."

الهذيان

بدأ الهذيان يدبّ في البعض.

كريم كان يرى أمه تقف على الموج وتطلب منه العودة.

سليم تحدث مع البحر كأنه صديقه القديم.

بلال بدأ يغني أغنية قديمة بصوتٍ مبحوح.

حتى مريم، نظرت لطفلها وسألته:

– **"هل ما زلت حيًّا؟ أو أنت حلمٌ أحمله من عالمٍ لم يوجد؟"**

لحظة السكينة الغريبة

في إحدى الليالي، توقف كل شيء.

لا ريح، لا موج، لا صوت.

فقط هم، في قاربٍ وسط اللاشيء.

قال كريم:

– "إن نجونا من البحر... هل نستطيع النجاة من أنفسنا؟"

سليم ردّ بصوت متعب:

– "سنرى... إذا كان في الجانب الآخر حياة، أو وهم جديد."

وانتهت الليلة بصمتٍ طويل، كأن البحر أخيرًا قرر أن يستمع دون أن يغرق.

الانقطاع

في فجر باهت، نظر أنور إلى البوصلة الصغيرة التي كان يخفيها في جيبه الداخلي، فتجمد وجهه.

– "البوصلة لا تتحرك."

– "ماذا؟!"

– "يبدو... أننا ندور في حلقة. لا نتحرك إلى أي مكان."

صمت الجميع، ثم تحركت مريم لأول مرة نحو وسط القارب وسألت:

– "يعني أننا... ضائعون؟"

– "نحن في منتصف العدم. لا شمال، لا جنوب، لا أي جهة واضحة."

بلال انفجر ضاحكًا، ثم بكى فجأة:

– "هربنا من وطن يقتلنا ببطء... فوقعنا في بحر يقتلنا دفعة واحدة."

انقطاع الاتصال

الهاتف الوحيد الذي احتفظ به كريم لم يعد يُظهر أي إشارة.

حاول أن يلتقط أي شبكة، أي حرف.

سليم قال له:

– "اتركه، لم تعد هناك إشارة، لا في السماء ولا في الحياة."

كريم ضغط على الهاتف بكل قوته حتى تكسرت شاشته.

كان فيه صورة لأمه... اختفت الآن.

أول حالة فقدان وصدمة

في منتصف اليوم، بدأ أنور ينزف من أنفه.

أمسك رأسه وهو يقول:

– "أشعر بدوار... ضيق في التنفس..."

حاولوا تهويته.

بلال بلل قطعة قماش ومررها على جبينه.

مريم صمتت، عرفت ما يحدث.

– "ضربة شمس؟"

– "لا... إنها بداية الانهيار."

أنور تمتم:

– "إن متّ... لا تبكوا. فقط... احكوا عني أني حاولت."

وغاب في إغماءة طويلة، شبه غيبوبة.

الغرق الصامت

في الليل، ارتفعت الريح فجأة.

المركب بدأ يتمايل بقوة.

صرخ الطفل نور، وتمسكت مريم بالخشب كأنها تحتضن الحياة.

سليم صرخ:

– "ثبّتوا أنفسكم! لا أحد يتحرك!"

موجة عاتية داهمتهم فجأة.

سقط بلال في البحر للحظة، وتمسك بالحافة بأظافره.

كريم أمسكه، رفعه، صرخ:

– "لن تذهب الآن! بعد كل هذا؟!"

بلال صعد... بصعوبة، كأن الحياة قررت أن تمنحه فرصة أخيرة.

الأسرار التي تظهر في الظلمة

في الصباح التالي، بينما كانوا يستريحون بصمت، قالت مريم فجأة:

– "لم يكن آدم والد نور."

الجميع التفت نحوها.

– "كنت أعمل في تنظيف البيوت... رجل غني اغتصبني... صمتّ. ثم كذبوا عليّ وقالوا إنهم سيتكفلون بي... فطردوني."

وضعت يدها على رأس الطفل:

– "نور هو الحقيقة الوحيدة التي خرجت من كذبة العمر."

لم يتكلم أحد.

بلال مسح دمعة من خده.

سليم اقترب منها وربت على كتفها:

– "نور ليس عارًا. نور هو السبب الوحيد لنبقى بشرًا هنا."

القرار المرّ

أنور لا يزال غائبًا. الماء نفد. الطعام انتهى.

كريم اقترح:

– "علينا التجديف. حتى وإن كان الاتجاه مجهولًا... لا يمكننا الانتظار أكثر."

بلال رفض:

– "وإن زدنا الضياع؟"

سليم قال:

– "نحن أصلاً ضائعون."

بدأوا التجديف... بالخشب، بالأيدي، بأحلامهم إن لزم الأمر.

ومع كل دفعة، كانوا يرددون أسماء من تركوهم... البحر كان هادئًا أكثر من اللازم.

هـدوءه لـم يكـن رحمـة، بـل خدعـة. السـماء تـراقبهم، والشـمس تحاصـرهم كعقوبـة لا تنتهـي. القـارب الصـغير يحملهـم كتـوترٍ هـش، يتمايـل كلمـا تـنفّس أحدهم.

كـريم كـان فـي المقدّمـة، عينيـه تزرعـان الأفـق بحثًـا عـن أي خـيط نجـاة. سـليم قربه، لا يتكلّم، فقط يضمّ ذراعيه إلى صدره كأنّه يحضن خوفه.

خلفهـم، مـريم تحـاول تهدئـة طفلهـا نـور، الـذي لـم يعـد يبكـي. الصـمت منـه صـار مرعبًـا. أنـور نـائم، أو فاقـد الـوعي، لا أحـد يعـرف. بـلال يحـدّق فـي الماء، كأنّه يحاول تذكّر لماذا اختار هذا المصير.

مـرّت سـاعات طويلـة بـلا صـوت، سـوى أصـوات أمعـائهم الخاويـة. كـان الجميع ينهار ببطء، لكن كريم ظلّ يقاتل بداخله.

مرّ اليوم الثالث في عرض البحر.

الشـمس كانـت نـارًا معلقـة فـي السـماء، والملـح يغطـي شـفاههم، كـأن البحـر بـدأ يلتهمهم ببطء. لا ظلّ، لا طعام، ولا حتى أمل يطفو على السطح.

أنـور كـان ممـددًا فـي زاويـة القـارب، رأسـه مائـل، وجهـه شـاحب كالرمـاد، وجفونـه نصـف مغلقـة. لـم يتحـرك منـذ سـاعات، لـم ينطـق بكلمـة. حـاول كـريم أن يوقظه، رجّه بلطف، ثم بعنف، لكن أنور لم يستجب. سليم همس:

"ربما نام فقط... أو... لا أعرف."

أبعد نظره كمن يخشى النظر في عيون الموت.

المـرأة جلسـت سـاكنة، تحتضـن طفلهـا الـذي توقـف عـن البكـاء. كانـت تهدهـده بـلا صـوت، كأنهـا تحـاول أن تقنـع نفسـها قبـل أن تقنعـه أن كـل شـيء سـيكون بخير.

بلال تمتم وهو ينظر إلى السماء:

"هل يراني الله من هنا؟ أم أن السماء لا ترى من يسقط في البحر؟"

فـي الليلـة الرابعـة، بـدأ كـريم يشـعر بـأن جسـده لـم يعـد لـه. أصـوات داخـل رأسه، صدى البحر صار كصراخ.

"أنا عطشان..." قال بصوت مبحوح.

لكـن لا مـاء. فقـط زجاجـة واحـدة شـربوا منهـا آخـر قطـرة البارحـة. سـليم اقترح أن يشربوا من البحر، لكن المرأة صاحت بصوت مكسور:

"لا تفعل... ستموتون أسرع..."

ثم صمتت، وابتلعت الكلمات التي لم تولد.

مرت ساعة، ثم أخرى.

الجـوع بـدأ يحفـر فـي بطـونهم، ولـم يبـق سـوى فتـات خبـز يـابس أخفـوه فـي قطعة قماش. قسمه كريم بينهم، كل واحد نال لقمة لا تكفي حتى لطائر.

أعطـت المـرأة حصـتها للطفـل، ولـم تأكـل شـيئًا. نظـر إليهـا كـريم، وأراد أن يقول لها شيئًا، شيئًا يربّت على قلبها، لكنه لم يجد ما يقول.

أنور ما زال غائبًا.

"سنفقده..." قال سليم بصوت مبحوح.

"لا!" صرخ بلال. "لا أحد يموت بعد! نحن لم نصل بعد!"

لكن البحر لم يرد.

والصمت عاد ليأكلهم من الداخل...

جاء الليل ...كان أعمى، لا قمر، لا نجوم، فقط بحر أسود يبتلع الأفق.

البرد تسلل إلى عظامهم، رغم أنهم كانوا تحت الشمس قبل ساعات فقط. أجسادهم كانت ترتجف، لا من الهواء، بل من فقدان كل شيء: الحرارة، الراحة، الإحساس بالزمن.

أنور ما يزال مسجًى. المرأة لا تزال تحتضن طفلها الذي بدأ وجهه يشحب، أنفاسه صارت قصيرة. وبلال؟ بلال جلس في مقدمة القارب، يضحك!

نعم... يضحك.

كريم اقترب منه، صفعه برفق:

"مالك؟"

بلال لم يرد، فقط أشار بيده إلى البحر، وهمس:

"انظـر هنــاك... مدينــة مـن نـور... فيهـا خبـز، فيهـا أمــي تنتظرنــي، وتقـول لي: تأخرت يا بني."

كريم تراجع، وعيناه امتلأتا بالدموع.

بــلال يهــذي. الجــوع والعطــش والانتظــار جعلــوا الواقــع كــالحلم، والحلــم كالوهم.

سـليم بـدأ ينـزف مـن أنفـه. لـم يعـد يشـعر بذراعـه اليسـرى. كانـت تخـدر شـيئًا فشيئًا. اقترب من المرأة وسألها بصوت مرتجف:

"طفلك... هل يتنفس؟"

أجابت دون أن ترفع رأسها:

"لم أعد أعرف... لكنه ما زال دافئًا."

ثم نظرت إلى البحر، وأضافت:

"هـل تعـرف؟ كنـت أقـول لـه قبـل النـوم أن البحـر كبيـر وحنـون... يبـدو أنـي كذبت عليه."

فجأة، وسط الظلام...

نقطة ضوء بعيدة، صغيرة... ترتجف.

كريم انتفض، صرخ:

"ضوء! هناك ضوء! أنظروا!"

سليم حدّق جيدًا، حاول أن ينهض لكنه ترنّح وسقط.
بلال ظلّ يضحك، ثم بدأ يبكي.

أما المرأة، فرفعت رأسها ببطء، وعيناها اتسعتا، وكأن الضوء قد اخترق قلبها قبل عينيها.

"ضوء..." همست، كمن رأى الحياة تعود إلى جثة قديمة.

لكن... الضوء لا يقترب. لا يتحرك.

مجرد ومضة في الأفق، كأنها تقول: "أنا هنا... ولكن لا تقتربوا."

تبادلوا النظرات. هل يصرخون؟ هل يجدّفون؟ هل ينتظرون؟

أنور... حرك يده فجأة.
كريم ركض نحوه، رفع رأسه، سمعه يهمس بشفاه يابسة:
"وصلنا؟"

ردّ عليه والدموع في عينيه:
"لسه... بس يمكن... يمكن بنوصل."

وفـي داخـل القـارب الصـغير، وسـط مـوج لا يـرحم، جلـس الجميـع فـي صـمت جديـد. لـيس صـمت اليـأس هـذه المـرة، بـل صـمت أول رعشـة أمـل... أو أول فخ جديد.

حسنًا...

سـنجعل الفجـر يحمـل حـدثًا موجعًـا، مـوت أنـور. لـن يكـون موتـه صـاخبًا، بـل هادئًا كرحيل من تعب من الانتظار.

طلع الفجر ببطء...

كأنــه يخجـل مـن أن يطـلّ علـى وجـوهٍ فقـدت الأمـل، وجـوهٍ غيّرهـا الجـوع والملح والبكاء الصامت.

كان البحر ساكنًا على غير عادته، كأنه يمسك نفسه احترامًا لما سيحدث.

كـريم كـان أول مـن شـعر أن شـيئًا تغيّـر. فـتح عينيـه بتثاقـل، وسـمع صـوت أمواج خفيفة، وهديرًا ناعسًا، لكن... لم يسمع أنور.

اقترب منه، ناداه بهمس:

"أنور... أنور، اصحى... شوف الشمس طلعت..."

لا جواب.

انحنى إليه، وضع يده على صدره.

لا نبض.

"أنور؟" قالها هذه المرة بصوت مرتفع، فيه رعشة لم يعهدها في نفسه.

هزّه، لم يتحرك.

نظر إلى وجهه... كان هادئًا، مسالمًا، كأن أنور قد عاد إلى مكانٍ كان يشتاق إليه منذ زمن.

سليم شعر بالحركة، اقترب.

"شا صرا ؟".

كريم لم ينطق.

سحب الغطاء الصغير الذي غطى به جسده، ثم نظر إلى سليم وقال بصوت مخنوق:

"راح..."

صمت.

حتى بلال، الذي لم يتوقف عن الهذيان طيلة الليلة الماضية، سكت. حدّق في وجه أنور، ثم تمتم بصوت بالكاد سُمع:

"محظوظ..."

المرأة أغمضت عينيها بقوة.

شـدّت طفلهـا إلـى صـدرها، وبـدأت تهمـس دعـاءً لا أحـد فهمـه. ربمـا كانـت تدعو له، وربما لنفسها، وربما لطفلها الذي يبرد يومًا بعد يوم.

كريم جلس بجانب جسد أنور، وأخذ يتحدث إليه كأنه ما زال يسمعه:

"كنـت دايمًـا تقـول إنـك تعبـت مـن الـدنيا... صـايي ريحـت .. بصـح عـلاش رحت قبل ما تشوف النور ؟"

لم يبكِ أحد.

البكاء صار ترفًا في هذا القارب.

لكن الصمت تغيّر. صار أثقل. صار يشبه الحداد.

فـي تلـك اللحظـة... سـمعوا صـوتًا خافتًـا، بعيـدًا. محـرك قـارب؟ أم مجـرد خيال يائس؟

رفعوا رؤوسهم.

الضوء الذي لمحوه البارحة... عاد للظهور. أقرب هذه المرة.

كأن رحيل أنور كان

لـم تمـرّ سـوى دقـائق بعـد أن لفـظ أنـور أنفاسـه الأخيـرة، حتـى ظهـرت ملامـح القارب في الأفق.

بـبطء... بهـدوء غريـب، كأنــه لا يتحـرك بالمــاء، بـل يزحـف علــى حافــة العالم.

كـل العيـون ترقبـه بصـمت. لـم يجـرؤ أحـد علـى الكـلام، كـأنهم خـائفون مـن أن يوقظوا شيئًا نائمًا بداخله.

كان قاربًا صغيرًا، خشبه مشقّق، لونه باهت، لكن من داخله... ضوء.

ضوء خافت، ثابت، غير طبيعي.

اقترب أكثر.

كـريم نهـض أولًا، تمايـل وهـو يسـحب حبـل التثبيـت، ومـدّ يـده يـربط القـاربين معًا.

"لا أحد ف هاد القارب ..." قال، وصوته بالكاد يسمع.

سليم صعد إليه، قلبه يركض.

"بلاك راه شخص مختبىء... بلاك شخص مريض..."

لكن القارب كان خاليًا تمامًا.

في الداخل، وجدوا بوصلة قديمة، يشير سهمها شمالًا بلا اهتزاز.

وصندوق خشبي مبلل فيه مصيدة أسماك بسيطة، فارغة.

وضـوء صـغير معلـق علـى السـقف، لا بطاريـة ظـاهرة، ولا مفتـاح. يضـيء كأنه قلبٌ لا يموت.

بلال صعد أخيرًا، نظر حوله، ثم سأل بهمس كأن المكان مقدّس:

"شا هذا؟"

ردّ كريم دون أن ينظر إليه:

"هدية؟ عقاب؟... ما عرفتش."

المـرأة لـم تصـعد. بقيـت فـي قـاربهم، تضـم طفلهـا الـذي بـدأ جسـده يتشـنج مـن البرد والجوع.

سألت بصوت خافت:

"هل فيه ماء؟ خبز؟ أي شيء؟"

هزّ سليم رأسه.

لا طعام. لا ماء. لا برية (رسالة).

فقط ضوء، وبوصلة، ومصيدة تنتظر من يمسك بها.

كأن القارب جاء ليقول:

"لـن أنقلكـم، لكـن سـأمنحكم فرصـة... فقـط إن كنـتم تعرفـون الاتجـاه، وإن كنتم ما زلتم تملكون القوة للصيد."

كريم جلس على أرضية القارب الجديد، نظر إلى البوصلة، ثم إلى البحر.

"أنور مات... وخلانا محيّرين... تايهين ."

سليم همس:

"بلاك هذا القارب هو أنور... رجع لنا بطريقة ثانية... لكن بدون كلام، بدون روح، باش يورينا الطريق."

المرأة أخيرًا رفعت رأسها، ونظرت إلى الضوء.

عينها انعكست فيه، وبدت فيه قوة لم يرها أحد من قبل.

"إذا كانت هادي فرصتنا التالية (الأخيرة)..." قالت، "فلازم نقرو بسرعة. نعيشو ... ولا نلحقو أنور."

كل شيء في أجسادهم يؤلم. الجوع صار أكثر من وجع... صار صوتًا داخليًا لا يسكت.

الطفل لم يعد يبكي، فقط أنين خافت، شفتاه مشققتان.

الأم تنظر إلى وجهه كأنها تحاول أن تحفظ ملامحه قبل أن يخطفه البحر.

كريم جلس في مقدمة القارب، يحدق في المصيدة الخشبية.

لم يأكل منذ يومين.

"يمكن نقدر نلقط شي سمكة..." قال وهو ينهض بصعوبة.

سليم تمتم دون حماس:

"البارح ما شفنا حتى زعانف... البحر ميت."

لكن كريم قرر أن يحاول.

ربط المصيدة بحبلٍ صنعوه من قماش ممزق، وضع بقايا من ورق مبلول داخلها، ورماها في الماء، أبقى يده ممسكة بالحبل.

مرّت نصف ساعة.

ساعة.

لم تتحرك المصيدة.

رفعها... فارغة.

رمى مرة أخرى.

لكن في كل مرة، لا شيء.

بلال، الذي لم يتكلم منذ موت أنور، ضحك فجأة ضحكة باهتة وقال:

"حتى البحر جاع... وما عاد فيه شي..."

كريم أعاد المصيدة بتعب، ثم رماها أرضًا.

جلس على ركبتيه، وبدأ يضرب القارب بيده:

"ليش!!؟ ليش؟!! حتى سمكة وحدة!!"

صمت الجميع.

المـرأة أمسـكت بيـد طفلهـا، وقربتـه إلـى صـدرها، وهمسـت لـه كمـا لـو أنـه يسمع:

"ما رح تروح... ما رح أتركك..."

سليم قال أخيرًا بصوت خافت:

"نقسم المي... ما بقى فيها غير شوية... بس لازم نوفّر للطفل أكثر."

لم يعارضه أحد.

صار الصمت قرارًا جماعيًا.

الماء قليل.

الطعام معدوم.

والقارب لا يتحرك.

فقط الوقت... يتحرك بثقل.

والجوع... كأنّه شخص يجلس بينهم، ينتظر من يسقط أولًا.

مرّ اليوم الخامس، وربما السادس... ما عاد أحد يعدّ.

السماء تكرّرت كثيرًا، والماء لم يعد أزرقًا، بل شفافًا إلى حدّ مؤلم... كأن البحر يعريهم.

سليم بدأ يتمتم بكلمات غير مفهومة.

عيناه مفتوحتان، لكنه لا يرى من حوله.

"أنا ما كنت بدي أتركهم... بس قالوا لي نروح... قالوا لي رح نعيش..."

اقتربت منه المرأة، وضعت يدها على جبينه.

"سخن..." همست، ثم نظرت إلى كريم: "ما عم يهذي... عم يرجع يشوف شي ما شفناه."

سليم ابتسم فجأة.

"أمي؟... أمي هناك؟... واقفة عند الباب؟"

بدأ يمدّ يده إلى السماء.

"خبيلي صحنك، راجع بعد شوي... بس شوي، أجيب شغل ونرجع ناكل سوا..."

ثم انفجر بالبكاء، بكى كما لم يبكِ من قبل.

"تركتها لحالها... ماتت، وأنا كنت بالبحر... ما رجعت..."

بلال الذي كان في الزاوية، ضحك فجأة.

ضحكته كانت شبيهة بالبكاء.

"أنـا سـرقت. آه، سـرقت... مشـان أقـدر أروح. قلـت مـا حـدا رح يلاحـظ. بـس أخـدت مـال أمّـي... تركتهـا تبكـي، وطلعـت. وهـاي أنـا، بمـوت بـين مـالح وسماء. تستاهل، بلال، تستاهل."

كريم كان يراقبهم بصمت.

وجهه شاحب، عيناه غائرتان.

لكنه لم يكن أفضل حالًا.

هو أيضًا رأى شيئًا.

في زاوية القارب، تخيّل أنور، جالسًا، يضحك.

"ليش ما أكلتني أنا؟" همس كريم.

"ليش خذته قبلي؟"

ثم صاح فجأة:

"كنـا نقـدر نرجـع!! لـو مـا سـمعت كلامكـم!! قلـت خلونـا نصـبر، قلـت البحـر بيفتح طريق، بس ما فتح!"

رفع رأسه، نظر إلى السماء.

"في حدا يسمعنا؟ في حدا عم يراقب ويستمتع فينا؟!!"

المرأة ضمّت طفلها. لم تعد تبكي.

الدموع جفّت، والصوت اختنق.

بدأت تهمس أغنية قديمة، كانت تغنيها لابنها عندما كان صغيرًا.

لكن هذه المرة، الصوت ما كان لأجله.

كان لأجلها.

كي لا تنسى أنها ما زالت على قيد الحياة.

وجه بريء في عرض البحر

كان الأصغر بينهم...
الأكثر هدوءًا، لكنه الأوضح في نظر الجميع.

عينا الطفل، واسمه يوسف، كانتا مرآتين صغيرتين للبراءة التي لا تعرف شيئًا عن القوانين، الحدود، أو الحروب.

لم يكن يفهم لماذا ركبوا القارب، ولماذا تبكي أمّه كثيرًا.

كل ما كان يعرفه هو أنه يريد أن يعود ليلعب مع جاره سامي، وأن يشرب من الكوب الأزرق الذي كسره قبل أن يرحل.

كان إذا جاع، يكتفي بأن يضع أصبعه في فمه وينظر لأمّه.
وإذا برد، يلتحف بذراعيها النحيلتين.

وفي الليل...
كان يسمع البحر يهمس.
كان يظنّ أن البحر يتكلم معه.
يقول له: "اصبر، أنا ألعب معك فقط."

الكل على القارب شعروا بوجوده.
كأنّ يوسف كان التوازن الوحيد وسط الجنون.
حين يضحك، ترتاح قلوبهم.
وحين يسعل، يخافون جميعًا.

كان كريم يقتطع له نصيبه من الماء دون أن يخبر أحدًا.
وكان سليم يروي له حكاية عن سمكة ذهبية، تكفيه ليحلم قليلاً.

لكن الحلم لا يكفي حين يختفي الطعام.
ولا يكفي حين يصبح الليل باردًا كقبر.

في الأيام الأولى، كان يوسف يلعب بأصابعه الصغيرة.
يمدّ يديه نحو السماء، يحاول أن يمسك النجوم البعيدة.
يضحك، يصرخ بصوت خفيف، كما لو أن البحر هو ملعبه الكبير.

لكن شيئًا بدأ يتغير.

أصبح يبكي فجأةً بلا سبب.

تقلصت يداه، وصارت شفتاه زرقاوين.

كلما جاع، صار يبكي بصمت، يغمض عينيه بقوة.

كانت أمه تحاول أن تسند رأسه إلى صدرها، تهمس له كلمات لا يفهمها، لكن فيها الأمل.

"يا نور عيني، صبر شوية... شوية وبنوصل."

كريم كان ينظر إليه كل مرة، يشعر بضغط في قلبه.

يحاول أن يبتسم، لكن عيونه كانت تعكس القلق.

كان يأخذ رشفة صغيرة من الماء، ثم يعطيها للطفل، كأنها دواء ثمين.

سليم كان يقول له قصصًا عن حياة أفضل، عن سلام بعيد.

"في مكان هناك، يا يوسف، الشمس دافية، والناس مبسوطين."

لكن يوسف لم يعد يستجيب.

كانت عيناه تحملان حزنًا أعمق من عمره.

براءة طفلٍ خُطف منه الأمان، وأُجبر على أن يعرف طعم القلق قبل أن يعرف طعم اللعب.

بدأ يوسف يفقد بريق عينيه شيئًا فشيئًا.

لم يعد يضحك، ولم يعد يصدر ذلك الصوت الخفيف الذي كان يعبر به عن فرحه.

أصبح هادئًا جدًا، كأنما بدأ يودع العالم قبل أن يغادره.

كانت الأم تمسك يده النحيلة، تراقب أنفاسه التي أصبحت أبطأ، وأقل عمقًا.

"لا يا حبيبي، ما تتركناش... إنت يا يوسف، ما ذنبيتك؟"

كانت تبكي بصمت، تحاول أن تخفي ضعفها، لكنها كانت تتكسّر مع كل نفس منه.

كريم جلس بجانبهم، يحتضن رأسه في كفه.

"لازم نصبر... بس الوضع صار صعب."

كان يحاول أن يبدو قويًا، لكن نظراته تكشف الألم.

سليم كان ينظر إلى السماء، يبحث عن نجمة، عن بصيص أمل، شيء ينقذ ذلك الطفل الذي لا يعرف ذنبه.

بلال لم يقل شيئًا، لكنه كان يراقب الطفل من بعيد، يعتصره الندم وكأن يوسف هو صورة لكل ما خسره.

في كل لحظة، كان يوسف يُسحب أكثر وأعمق في صمت لا يفهمه سوى من كان يحمل قلب طفل بين أيديهم.

اللّحظات الأخيرة

يوسف نظر إلى السماء بعينيه الواسعتين، وكأنهما تبحثان عن شيء بعيد، غير مرئي.

يده الصغيرة امتدت ببطء، نحو يد أمه، التي كانت ترتجف وهي تمسك به.

"ما بدي أنام... ما بدي أموت..." همس الطفل بصوت خافت لا يسمعه أحد سوى قلب أمه.

لكن الجوع، والبرد، والبحر... كانوا أقوى.

الأم انحنت على جسده، تغمض عينيه برفق، وتقبّل جبينه المتعرّق.

دموعها انسكبت على وجهه كأنها تحاول أن تبقيه دافئًا.

كريم وسليم وبلال وقفوا بجانبها، صامتين.
لم يكن بوسعهم أن يقولوا شيئًا.
كل كلماتهم ذابت مع موجات البحر.

الأم عانقت يوسف، همست له:
"يا نور عيني، ما ذنبك؟ انت بريء... ما عملت شي غلط..."

ثم، بقلبٍ محطم، شعر الجميع بأن النفس الأخير قد خرج.
طفلهم الصغير، براءته التي لم تكتمل، رحلت بهدوء لا تشوبه حتى صرخة.

ظلوا واقفين هناك، في قارب صغير وسط محيط واسع، يصرخ في صمت، ينادي ببراءة ضاعت، بأحلام قُطعت، وبطفل لم يُدرك بعد معنى الحياة.

الهواء مملوء برائحة الملح والبحر، لكن قلب القارب كان يغلي بالدموع والوجع.
الأم جلست بهدوء، تجمع ثوبًا بسيطًا، تحنو على جسد يوسف برقة تملؤها الحنان والمرارة.

كـريم نـزع قميصـه وبلـل الثـوب بقطـرات مـن مـاء البحـر، حـاول أن يخفـف برد الطفل الذي لم يعد يتحرك.

سـليم، بصـوت مكسـور، بـدأ يتلـو آيـات مـن القـرآن، محاولـة لإيصـال السـلام إلى روحٍ لم تذق الأمان.

بـلال نظـر إلـى الأم، عيناهـا تـتلألأان بالـدموع، لكنـه تمالـك نفسـه، مـدّ يـده ليدها الصغيرة، كأنهما يشتركان في الألم نفسه.

جمعوا جسد يوسف في الثوب بعناية، رفعوه برفق.

الطفل الصغير أصبح ثقلاً على قلوبهم، لكنه أمانة في أعينهم.

حين ألقوه في البحر، تبعوه بنظرات مليئة بالحسرة والعتاب.

كانت الأم تصرخ في صمت، تسأل البحر:

علاااااش؟ علاااااش يا بحر؟ ديتلي العزيز... نور عيني..."

الـريح أخـذت صـوتها بعيـدًا، والبحـر احتضـن يوسـف برقـة، وكأنـه يعـده بـأن تكون رحلته أخف مما كانت الحياة.

فـي تلـك اللحظـة، فهـم الجميـع أن البحـر لا يسـرق فقـط الأجسـاد، بـل يأخـذ معه الأحلام، البراءة، وحتى الأمل.

مرت الأيام على القارب وكأنها سنوات.

كـل موجـة كانـت تـذكرهم بصـمت يوسـف، كـل نسـمة بـاردة تحمـل معهـا صوت طفله الذي لم يعد.

الأم تغيرت.

صـمتها أصـبح أثقـل، عيونهـا التـي كانـت تلمـع بالأمـل صـارت خاويـة، كأنهـا تتحدث مع فراغٍ لا يملأه أحد.

كانت تحكي للبحر عن يوسف، تتكلم إليه كما لو أنه يسمعها.

"كنـت نفـرح كـي ا تضـحك، حتـى بالقليـل .. مـا خليـتكش تحـس بـالجوع، بصح ما عرفتش نحميك من البرد..."

كـريم صـار أكثـر صـمتًا، صـار يبتعـد عـن الآخـرين، يخفـي دموعـه خلـف نظرة صلبة.

لكـن فـي لحظـات الوحـدة، كـان يحكـي لنفسـه قصصًـا عـن يوسـف، يحـاول أن يثبت أن معاناة الطفل لم تكن عبثًا.

سـليم صـار يهـتم بالمـاء والطعـام بشـكل أكبـر، كأنـه يحمـل علـى عاتقـه مسؤولية الجميع، ويشعر أن عليه أن يعوّض ما فقدوه.

لكنـه، رغـم جهـوده، كـان يـرى فـي كـل طفـل صـغير علـى الشـاطئ وجـه يوسف، مما يزيد ألم قلبه.

بـلال، رغـم ظـاهره القـوي، بـدأ يعـاني مـن كـوابيس، حيـث يـرى الطفـل الصغير يغرق في الأمواج، ويصيح باسمه في صمت.

وهكـذا، أصـبح يوسـف ظـلًّا لا يفـارقهم، يحمـل فـي قلـوبهم الألـم، والنـدم، والأمل بأن تصل قصته لمن يسمع.

اليوم الذي اختفى فيه الأمل

كانـت الشـمس ترتفـع بـبطء فـي السـماء، لكـن القـارب وسـط بحـر لا نهايـة لـه، لا أثر ليابسة.

الوجـوه متعبــة، العيـون محملــة بثقـل اليــأس، وكـل نفـس يـزداد ضـيقًا كــأن البحر يلتهمهم أكثر.

الأم تنظـر أمامهـا بـلا تركيـز، كأنهـا تحـاول أن تسـترجع صـورة اليابسـة التـي تلاشت من ذاكرتها تمامًا.

" يوسف وين حنا وين ؟"

كانت كلماتها ترتطم بصمت البحر، بلا إجابة.

كـريم ينظـر حولــه، يبحـث عـن أي علامــة، حتــى عـن ظـل بعيـد، لكـن لا شيء.

"مكانش أمل..."

سليم يهمس بصوت منخفض، وهو يحدق في الأفق:

"يوم بعد يوم... اسبانيا تروحي من بالي... تقول محكوم علينا بالنسيان."

بـلال، رغـم صـمته، كانـت عينـاه تملأهـا عاصـفة مـن الألـم والقلـق، يصـرخ داخله لكنه لا يجرؤ على التعبير.

الطفـل يوسـف، رغـم رحيلـه، ظـلّ فـي قلـوبهم كـآخر شـعاع ضـوء فـي ظلمـة لا تنتهي.

حتــى اللحظــة، لـم يعلمـوا أن هـذه اللحظـة التـي فقـدوا فيهـا الأمـل هـي أقـربهم من البر.

ظهور اليابسة

مرّت ساعتان ثقيلتان في صمت البحر الذي كان يحتضنهم بلا رحمة.

الأمل تلاشى، والوجوه أصبحت أقرب إلى الظلال، وأصواتهم باتت همسات لا تملأ الفضاء.

فجأة، عبر الأفق البعيد، برز خطٌّ رفيعٌ بلونٍ مختلف.

لم يكن واضحًا في البداية، لكن شيئًا ما في القلوب تنبّه، أضاءت بريقًا خافتًا من الحيرة والأمل.

سليم رفع يده إلى حاجبيه، يحاول التركيز:

"يا الله... هذي هي ...؟"

كريم رفع صوته مكسورًا:

" اسبانيا .. منيش مأمن (لا أصدّق) !"

الأم أمسكت بحافة القارب بقوة، دمعها انسكب بلا صوت:

"يوسف... حبيبي... شوف، وصلت... وصلنا."

بلال وقف مشدودًا، كأن دموعه تنتظر الإذن لتسيل، لكن الحذر في عينيه كان واضحًا.

"لازم منتقلقوش ... حتى نتأكدوا بلي مكانش خطر قدامنا."

الريح بدأت تهب بنسمة مختلفة، الأمواج صارت أقل عنفًا.

الأفق اتسع، واليابسة اقتربت أكثر فأكثر، تتحول إلى شاطئ واضح، شجر، وصخور.

الشاطئ الأخير

وصل القارب ببطء إلى رمال شاطئ إسبانيا، حيث تعانق الأمواج الأرض بهدوءٍ غريب بعد كل هذه الرحلة الطويلة.

الأجساد المنهكة، العيون المشتعلة بالحزن، والقلوب المثقلة بأثقال الفقد، كل ذلك كان حاضرًا في اللحظة التي وطأت فيها أقدامهم أول مرة اليابسة.

كريم جلس على رمال الشاطئ، يحدق إلى الأفق بلا كلام، وكان صدى فقدان يوسف وأنور يتردد في أعماقه.

في قلبه كان يسأل كيف نمضي قدمًا بعد أن فقدنا أكثر ما نحب.

الأم، برغم ألمها الذي لا يوصف، أمسكت يد الطفل الذي بقي، تحنو عليه بعيون ملؤها الحزن والأمل معًا.

يوسف كان براءتنا... وأنور كان قوتنا... لكن الحياة لا تتوقف

سليم مد يده، يمسح دموع الأم برقة، ويقول بصوت متهدج:

"وصلنا، وصلنا ... هذي البداية ، ماشي النهاية."

بلال نظر إلى السماء، مستجمعًا قوة جديدة، وقال:

"مستحيل ننساكم ، حكايتكم نحكيها لجميع الناس ، ربي يرحمك خويا أنور ...، و يوسف طير من طيور الجنة يلي ذنبك علينا... سامحونا..."

صمت البحر حولهم كان كأنه يشاركهم الحزن، لكنه حمل أيضًا وعدًا بأن الحياة تستمر.

اليابسة لم تكن فقط أرضًا جديدة، بل بداية لأمل جديد، رغم أن الأرواح التي فقدوها لن تُنسى أبدًا.

بعد كل هاذي الرحلة، بعد كل التعب، الدموع، والفقدان، عرفنا بلي الحياة ماشي سهلة، ولا الدنيا ترحم كل واحد. لكن رغم كل شي، القلب يبقى قوي، والروح ما تقدرش تستسلم. إحنا ما هربناش، راهي صرخة حياة، نبحثو على نفس جديد، على هواء نستنشقوه بعيد على الألم والظلام.

فـي هـاذ الطريـق الصـعيب، تعلمنـا بلـي الألـم راهـو جـزء مـن الحيـاة، والـذكريات اللـي تركوهـا معانـا يوسـف وأنـور، راح تبقـى نـور يهـدينا فـي الظلمات. كل جرح فينا هو قصة، وكل دمعة هي صلاة صامتة.

يـا الـدنيا، كثـر مـا تجـرح، رانـا قاعـدين نرجعـو نوقفـو، نكملـو المشـوار رغـم كـل العواصـف. نعيشـو ونحبّـو، نضـحكو ونبكيـو، ونمشـي بقلـوب مفتوحـة رغم الخوف.

وهاك شوية شعر من القلب:

في بحر الألم، نغوصو بلا قرار
نفتشو على شمس، تسقينا بالأسرار
رحلة طويلة، والروح تشتكي

لكن الأمل في القلب، ما عمره يموت.

مقبرة الزرقة

ناموا على صدْرِ المدى المنكوبِ

ما بينَ أمواجِ الأسى والهُوبِ

ما عادَ للبرِّ النداءُ مجيبًا

ضاعت خطاهم في غبارِ الغيبِ

راحوا كأحلامِ الصغارِ، كأنّهم

ضوءٌ تلاشى في عيونِ الديبِ

قد باعَهم صمتُ الحدودِ وخانهم

وعدُ النجاةِ بأحلامِ الخُطُوبِ

حملوا البلادَ على القلوبِ، وهاهمُ

أرّقْتهمُ في ظلمةِ المقلوبِ

الملحُ نامَ على الشفاهِ كأنّه

طعمُ الوداعِ ومَرّ عُمْرٍ تَوْبِ

يا بحرُ، هل في جوفِك العفوُ الذي

يشفي الجراحَ ويستعيدُ حبيبي؟

.

في قلب الموج، حيث تتصارع الأحلام مع
الغرق، وتُختبر الإنسانية في أعتى لحظاتها،
يُبحرون نحو المجهول... لا طمعًا في الجنّة،
بل هربًا من الجحيم
رواية تُعرّي الواقع، وتهمس بآهات الضائعين
بين حدود الأمل والتيه، حيث البحر ليس فقط
ماءً مالحًا... بل شاهدًا على أرواح علّقتها